﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾

[سبأ: 25 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إيقاظُ النُّفوس ووعي القلوب

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة الرَّزّاق الحقيقيَّ؛ لتقرير المستحِقِّ للعبادةِ الحقَّة، وبيَّنت أنَّ النّاس إمّا على هدًى أو في ضلالٍ مبينٍ؛ ناسب الانتقال إلى تخليص المخاطَبين من أيِّ تبعةٍ قام بها المتكلِّمون، ولو بلغ مبلغَ الإجرام، كأنَّه قيل: دعوا عنكم أمرَ إجرامنا، والتفتوا إلى أعمالِكم الَّتي لن نُسألَ عنها كذلك؛ لأنَّ اللهَ سيجمعُ بيننا ليحكم بيننا بالحقِّ المبين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرَمۡنَا﴾: (جرم) أصلٌ يدُلُّ على القطع بعد التَّمام، فالجَرْم: القطع، وجَرَمَ التَّمرَ: قَطَع عُذوقَهُ المتدلّية مِنَ النَّخل جَنْيًا لَهُ، وجَرَمَ النَّخلَ: خَرَصَهُ، وجَزَّهُ، والجُرامة: ما سقطَ مِنَ التَّمرِ، ويُسمّى الكثيف المتجمِّع من التَّمر المتساقط جِرْمًا، ومن ذلك قولهم: أُلقي عليه أَجْرامه، أي: ثِقَل جِرْمه، وقولهم: أعطيتُهُ كذا وكذا جَريمًا من طعام، أي: مُدًّا، ومن هذا البابِ أُطلِقَ الجُرْمُ على الذَّنب الغليظ دون مطلق الذُّنوب، فالمُجْرِم: من حمل جُرمًا كالآثِم والأوزار ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]، وقد فُسِّر لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40] في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40] بالكافرين، ولا وِزْرَ أثقلُ من الكفر والعياذ بالله تعالى، فمعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾، أي: لا تُسألون عن ذنوبنا لو أذنبنا[1].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).

2) ﴿يَجۡمَعُ﴾: (جمع) أصلٌ يدُلُّ على تضامٍّ الشَّيء، يقال: جمعت الشَّيءَ جمعًا[1]، والمجمع حيث يُجْمَعُ النّاس، وهو أيضًا اسمٌ للنّاس، والجَماعَةُ: عددُ كلِّ شيءٍ وكثرته[2]، والمقصودُ في الآية: هو جمعُ النّاس يوم القيامة لحسابهم وجزائهم.

3) ﴿يَفۡتَحُ﴾: (فتح) أصلٌ يَدُلُّ على خلافِ الإغلاقِ، يقال: فتحتُ البابَ وغيرَه فتحًا، ثمَّ يُحمل على هذا سائرُ ما في هذا البناءِ، فالفتحُ: الحكم، واللّه تعالى الفاتحُ والفَتّاحُ، أي: الحاكم[3]، والفَتْحُ: أنْ تحكُمَ بين قَومٍ يختَصِمون إليكَ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]، والفَتْحُ: النُّصرةُ، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ [الأنفال: 19][4]، وقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: يحكُم بينَنا حُكمًا، يتبيَّن به الصادقُ مِن الكاذب، والمستحِقُّ للثواب مِن المستحِقِّ للعقاب.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن عملِهِ في الدُّنيا وسيأتي يوم القيامة فردًا

تُبيِّن الآيتان الكريمتان الإرشادَ الإلهيَّ لنبيِّنا محمَّد ﷺ، في بيان موقفه من أعمالِ المدعوّين، وبيان موقف المدعوّين مِن أعمالِه، فكلُّ إنسانٍ رهينُ أعمالِه، وليس لأحدٍ أن يُحاسَبَ على أفعال غيرِه، فتؤكِّد هذه الآيةُ على مبدأ الفرديَّةِ في الحساب يوم القيامة، حيث يُحاسَبُ كلُّ إنسانٍ على أعماله الخاصَّة.

كما بيَّنت أنَّه سيجمع النّاس كُلَّهم يوم القيامة، ويكون الفصلُ بينهم بالحقِّ، وأنَّ اللّه هو ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ بمعنى: أنَّه سيُظهر الحقَّ، ويكشفه، و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمعنى: أنَّه يعلم كلَّ شيء، بما في ذلك أعمال العباد ونيّاتهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(2) الخليل، العين: (جمع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(4) الخليل، العين: (فتح).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجملة عمّا قبلَها:

التَّفريقُ بين الأفعال الفرديَّة ومبدأ المسؤوليَّة في الاحتجاج

لمّا كان قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ يتضمَّن بيانًا للقول الذي قبله، فُصِلَ عنه؛ إذ لا يعطف البيان على المبيَّن بحرف النَّسق، فالجملةُ الثانية بيانٌ للأولى، وكلاهما إنشاءٌ بالأمر ﴿قُل﴾، فإنَّه لمّا ردَّد أمرَ الفريقين بيَّن أن يكونَ أحدهما على هدًى والآخر في ضلالٍ، وكان الضَّلال يأتي بالإجرام؛ اتَّسع في المحاجَّة، فقيل لهم: (إذا نحن أجرمنا؛ فأنتم غيرُ مؤاخذين بجُرْمِنا، وإذا عملتم عملًا؛ فنحنُ غيرُ مؤاخذين به)، أي: كلُّ فريقٍ مؤاخذٌ وحدَهُ بعملِهِ، فالأجدى بكلا الفريقين أن ينظرَ كلٌّ في أعمالهِ وأعمال ضِدِّهِ؛ ليَعلم أيُّ الفريقين أحقُّ بالفوز والنَّجاة عند الله؟.

ويجوز أن تُعدَّ الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، وفائدتُهُ أن تكونَ الجملةُ مستقلَّةً بنفسها ليخصَّها السّامع بالتَّأمُّل في مدلولها، وهي مع ذلك اعتراضٌ بَيِّنٌ أثناء الاحتجاج[1].

غرضُ فعلِ الأمر ﴿قُل﴾:

قُدسيَّةُ الخطاب الإلهيّ وأثرُه في توجيه الرِّسالة

قوله تعالى ﴿قُل﴾ أمرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ، جاء للإرشاد والبيان والتَّعليم لِما سيقولُهُ للمخاصمين، وهو أمرٌ لأمَّته أن يتنزَّلوا مع الخصوم في الدَّعوة إلى الحقِّ المبين، وفي ذلك دلالةٌ على معجزةِ هذا الخطاب، فهو القولُ النّافع في الدَّعوة، وهو المبيِّن للعلم الإلهيِّ في الكشفِ عن حقائق النَّفس البشريَّة.

نكتةُ تكرارِ فعل الأمر:

العنايةُ بالمخاطَبين بإعادة خطابٍ يحمل مضمونًا جديدًا

أُعيدَ فعلُ الأمر ﴿قُل﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾؛ لأنَّه بيانٌ للجملة السّابقة، ولإقامة هذه الجملة: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ باستقلالٍ عن الجملة السّابقة، فهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 193 - 194.

أمرٌ مستقلٌّ يأخذ مكانه في الدَّعوة والخطاب، فَفِعلُ الأمر يُبيِّن فعلَ الأمر، بأن يقولَ لهم مقالًا آخر، لزيادة الاهتمام، واستدعاء المخاطَبين للإصغاء إليه، وهذا أسلوبٌ دَعَويٌّ مُهِمٌّ يعلِّمُ القرآنُ مِن خلاله الدُّعاةَ التَّردادَ والتَّكرارَ وعَدَمَ اليأس من خطاب المنكرين.

فائدةُ حرف النَّفي ﴿لَّا﴾ ودخوله على المضارع:

المسؤوليَّةُ منوطةٌ بالفاعلِ، منفيَّةٌ عن عموم البشر

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ جاء بحرف ﴿لَّا﴾؛ للدَّلالةِ على عمومِ النَّفي، وأنَّه متَّجِهٌ للماضي والحاضر والمستقبل، ففيه أنَّ كلَّ إنسانٍ محاسبٌ على فعله في الزَّمان كلِّه، وجاء فعل ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ مضارعًا لتوكيد معنى العموم، وبيان نفي كلِّ متجدِّد، في الحاضر والمستقبل، أي: لا تُسألون عن أعمالِنا الماضية والحاضرة والمستقبليَّة.

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ لفظِ السؤال:

استعمالُ اللَّفظِ في بيان الغاية ووسيلتها

لفظُ السُّؤالِ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كنايةٌ عن أثرِه، وهو الثَّواب على العمل الصّالح والجزاء على الإجرام بمثلِهِ[1]، وجيءَ بلفظ السُّؤالِ باعتبار أنَّ الفاعلَ يُجازى على فعله - إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ - بتوجيهِ السُّؤال عن أعمالِه، فجَمَعَ هذا اللَّفظُ بين المحاسبة وأداتِها، وهو السُّؤال.

تعيينُ المقصودِ بضمير المخاطَبين:

المرادُ بالمخاطَبين في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ المنكِرون والمعاندون والمعارضون مِن مشركي قريش، وهو صالحٌ لكلِّ ضالٍّ ابتداءً، ولكلِّ عاصٍ مِمَّن لا يستجيب للدَّعوة.

معنى (عَنْ) ودلالتها:

كلُّ إنسانٍ مُبعَدٌ عن أعمالِ غيرِهِ مجازًى عن أعمال نفسِهِ

أفاد حرفُ (عَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ معنى المجاوزة والابتعاد، فجُعِلَ الإجرامُ المفترض في دائرة، والمخاطَبون في دائرةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

أخرى، والمخاطَبون مبتعدون عنها، لا يقربونها، أي: (لا تُسألون أيُّها المخاطَبون)، فجعلهم منصرفين عمّا أجرمَ غيرهم، وغيرهم منصرفون عن أعمالهم، وهكذا يكونُ الإنسانُ رهينَ أعمالِهِ ومعتقداته.

نوع (ما) ودلالتها:

أداة (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ اسمٌ موصولٌ يقع على ذوات ما لا يعقل، وصفات ما يعقل، وقد وقعَ على صفةِ الإجرام لإفادةِ العموم، أي: عمومِ الإجرام العقديِّ والسُّلوكي.

نكتةُ إسنادِ فعل الإجرامِ إلى ضمير المتكلِّم:

أُسنِدَ فعلُ الإجرام إلى جانب المتكلِّم ومن معه في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ بناءً على زعم المخاطَبين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: 32]؛ إذ كان المشركون يؤنِّبون المؤمنين بأنَّهم خاطِئون في تجنُّب عبادة أصنام قومِهم، وهذه نكتةُ صوغِهِ في صيغة الماضي؛ لأنَّه متحقِّقٌ على زعم المشركين[1]، فجاء الخطابُ بما يلائم طريقتَهم في تقدير الأمور، وزعمهم أنَّ المؤمنين بلا وعي ولا درايةٍ، وأنَّهم ضالّون، وذُكِرَ الإجرامُ تهويلًا ومبالغةً؛ إذ لا أذًى مِن إيمان المؤمن والتزامه عبادةَ ربِّه، وهذا من التَّنزُّل مع الخصم في الإقرار بما يعتقد تماشيًا معه للإقرارِ بالحقِّ في المآل.

التَّنزُّل مع الخصمِ للإقرارِ بالحقِّ في المآل

بلاغةُ الوصلِ بين الجملتَين الخبريَّتين:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ حرفُ عطفٍ للوصل بين الجملتين؛ بسبب التَّوسُّط بين كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال، لِتَحقُّق جانبٍ مِن الاتِّفاق وجانبٍ مِن الانفصال بين الجملتين؛ إذ إنَّ بين الجملتين اتِّصالًا يتمثَّل في كونهما خبريَّتين، والعلاقةُ التي بينهما هي علاقة التَّضادِّ، وبينهما اختلافٌ من حيثُ

التَّقابلُ بين المعاني والاتِّفاق في الحكم الختاميِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

المعنى المدلول عليه في كلٍّ منهما، وهي مثلُ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار: 13 - 14].

معنى (لا) في قوله ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ﴾:

دعوةٌ للتَّأمُّل في المصير الأخرويِّ

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ في زمن المستقبلِ؛ إذ تدخل (لا) على الفعل المضارع، فتُخلِّصُه للاستقبال، وفي العبارة دعوةٌ إلى النَّظر إلى المستقبل والتَّطلُّع إلى استقبال المصير الأخرويِّ، وهو ما سيكون يومَ القيامةِ مِنَ الحساب، والاستعدادِ له بالعمل الصّالح، والحرصِ على أن يكونَ الإنسان على هدًى ممّا يقولُ، ويفعلُ.

بلاغةُ المقابلة بين الجمل المتعاطفة:

المقابلةُ بين الإجرام الماضي والعمل الحاضر

بين قوله تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مقابلةٌ، حيث جُعِلَ الإجرامُ صفةَ المتكلِّمين، كما يظنُّ المخاطَبون بالذين آمنوا، أو كما يدَّعون، وذُكِرَ العملُ على إطلاقهِ في صفة المخاطَبين، فيكون خيرًا كما يظنّون، أو كما يدَّعون، أو يكون إجرامًا وسوءًا، فأُسنِدَ الإجرامُ للمتكلِّمين لا لإقراره، بل لتخليص المخاطَبين مِن آثارِه، وإبعادِهم عن محاسبة المؤمنين، وأُسنِد العملُ للمخاطَبين، وهو أمرٌ يعُمُّ كلَّ سعيٍ مقصودٍ، لكي لا يجادلوا دفاعًا عن أنفسِهم مِن أيِّ اتِّهام، كما هي عادةُ المجرمين على الحقيقةِ، وهذا خطابٌ نفسيٌّ بديعٌ، تُفهَمُ أبعادُهُ وحقائقُهُ، وتُجتنب سلبيّاتُه وأوهامُه.

وجاء فعلُ ﴿أَجۡرَمۡنَا﴾ بلَفْظِ الماضي، أَي: (قبل هذا)، ولم يقل: (نُجرِم)، فَيَقَع في مُقابلَة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأَنَّ مِن وصفِ المُؤمن أَن يعزمَ على أَلّا يُجرم، وقَوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خطاب للكفّار، وكانوا مُصرّين على الكفر في الماضي من الزَّمان والمستقبل، فاستغنَتْ بِهِ الآيَةُ عن قَول: (كُنْتُم)[1].

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 209.

بلاغةُ استعمالِ لفظ العملِ، ونكتة صوغه مضارعًا:

التَّعريضُ بالعملِ الفاسدِ والحثُّ على العمل الصّالح

جاءَ فعلُ العملِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّهم ينتظرونَ منهم عملًا صالحًا؛ تعريضًا بأنَّهم يأتون عملًا غير ما عملوه، وتلويحًا بطلب إيمانِهم باللّه بعد كفرِهم، وهذا ضربٌ من المشاركةِ والموادعةِ؛ ليخلوا بأنفسِهم، فينظروا في أمرِهم، ولا يُلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض أنفسِهم ومحاسبتِها، وفيه زيادةُ إنصافٍ؛ إذ فَرض المؤمنون الإجرامَ في جانب أنفسهم، على حسب ظنِّ المشركين، وأسندوا العملَ على إطلاقِه في جانب المخاطَبين؛ لأنَّ النَّظرَ والتَّدبُّرَ بعد ذلك يكشف عن كُنهِ كِلا العَمَلين[1].

نكتةُ حذفِ فعلِ الكينونةِ:

خطابُ الجزاء قائمٌ على الحججِ وخطابُ الدَّعوة قائمٌ على التَّلطُّف

حُذِفَ فعلُ الكينونة في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ولم تأتِ كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]، وغيرها من الآيات القرآنيَّةِ، وذلك أنَّ الآيةَ حديثٌ في الدُّنيا لا في الآخرة، ولو أتى بفعل الكينونةِ؛ لأثبتَ عليهم عملَ المفاسدِ والمعاصي والكفر، وليس هذا المقصود؛ لأنَّ الخطابَ خطابُ دعوةٍ وهداية، لا خطاب حسابٍ وجزاءٍ.

غرضُ تكرارِ فعل الأمر:

استقلالُ ذِكرِ الحُجَج تأكيدٌ وتنكيلٌ

أُعيد ذِكرُ فعل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾؛ لإقامة الجملة باستقلالٍ عن بقيَّة الجمل؛ لتكونَ كلٌّ مجادلة مستقلَّةٍ غير معطوفة، فتكون هذه الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي كذلك بمنزلة البيان للَّتي قبلها؛ لأنَّ نفي سؤال كلِّ فريق عن عملِ غيرِه يقتضي أنَّ هنالك سؤالًا عن عمل نفسه، فبيَّن بأنَّ الذي يسأل النّاسَ عن أعمالِهم هو اللّه تعالى، وأنَّه الذي يفصل بين الفريقين بالحقِّ حين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 194.

يجمعُهم يوم القيامة الذي هم منكروه، فما ظنُّك بحالِهم يوم تحقَّق ما أنكروه[1].

بلاغةُ الكنايةِ بصيغة المضارع:

تصويرُ المشهدِ المستقبليِّ بحسابٍ إلهيٍّ وجزاءٍ عادل

استعمل النَّظمُ الكريم مفردةَ الجمع في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، كنايةً عن إقامة الحساب بالعدالة الإلهيَّة؛ إذ مقتضى جمع المتخاصمين في صعيدٍ واحدٍ هو محاسبتُهم ومجازاتُهم على أعمالِهم في الدُّنيا، فدلَّ لفظُ الجمعِ على الحساب العادل؛ لأنَّ الذي سيجمع النّاس هو ربُّهم ﷻ، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع لتصوير المشهد المستقبليِّ، ولمزيد التَّهديد بالإيماءِ إلى أنَّ هذا الجمعَ سيتحقَّقُ قريبًا، فإنَّ الموتَ قريبٌ، وما بعده إلّا جمعٌ وحسابٌ وجزاءٌ.

نكتةُ تقييدِ فعل الجمع بظرف (بين):

الإيماءُ إلى الافتراقِ والتَّنائي في المعتقدِ والسُّلوك

آثرَ النَّظمُ الكريم تقييدَ الجمعِ بظرف (بين) في قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، دون أن يقولَ: (يجمعنا)؛ وذلك لدلالتِه على الافتراق، فإنَّ البينيَّة تكون بين المفترقين، والسّياقُ هو الذي يُحدِّد ذلك، والمفترقون هنا هم المتكلِّمون والمخاطَبون، وافتراقُهم هو افتراقُ خصومةٍ في المعتقد والسُّلوك، وهو الذي اقتضى الحكمَ والحسابَ العادل، وهو المشارُ إليه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

مَن عصى الذي أحسنَ إليه؛ سيلقى حسابَه على يَدَيْهِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوان الربوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ دون الألوهيَّة، وذلك أنَّ الموقفَ هو موقف بعثٍ وحشرٍ وجمعٍ وحسابٍ وجزاءٍ، والذي يُناسبه هو الرُّبوبيَّة، لِما فيه من إلقامِهم الحسرةَ والنَّدامة، فإنَّ الربَّ الذي أطعمهم مِن جوعٍ، وآمنهم مِن خوفٍ، وربّاهم ورحمهم، ورعاهم، هو الذي سيُحاسبهم، ويُجازيهم على أعمالِهم، فمَن عصى الذي أحسن إليه؛ سيلقى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.

حسابَهُ على يديه، لتكونَ الرُّبوبيَّة في الدُّنيا حُجَّةً عليهم في الآخرة، فإنَّ مَن أساء إلى المحسن، فسيلقى جزاءَ إساءته، وهذا من بديع الاستعمالِ الدّالِّ على العدالةِ المطلقة بالحجَّة والبرهان.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبُّنَا﴾:

استحقاقُ الرَّبِّ العبادةَ الحَقَّة في الدُّنيا والجزاء في الآخرة

دلَّت إضافةُ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ على الاستحقاق، فاللهُ ﷻ استحقَّ بربوبيَّه العبادةَ الحَقَّة، والتَّوحيد الخالص، ومَن استحقَّ ذلك في الدُّنيا؛ فهو صاحب الحقِّ في الجزاء الأُخرويِّ، كما أومأت هذه الإضافةُ إلى أنَّه ﷻ ربُّ المتكلِّمين الذين يعتقدون بهِ الاعتقادَ الصَّحيح، فهو ربُّهم الذي يشرفون بعبادتهِ، فهو الرَّبُّ العظيم المستَحِقُّ للثَّناءِ والمجد.

نوعُ التَّراخي ودلالتُه:

الجمعُ بين تراخي الزَّمن والرُّتبة من الإيجازِ المُثمِر

يحتمل حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ دلالَتَي الزَّمنِ والرتبة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فأمّا الزمنُ؛ فتفاصيلُهُ غيرُ معلومة ما بين الجمع والفتح، وأمّا الرُّتبةُ؛ فإنَّ رتبةَ الجمع سابقةٌ لرتبة الفتح والحكم، ولا ضيرَ من اجتماع الدَّلالتين، بل هو الأليقُ بقانون الإيجاز في النَّظم، وتكثير المعاني.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال مفردةِ الفتحِ:

تشبيهُ المعنويّات بالماديّات أرسخُ في الأذهان وأقربُ إلى الأفهام

الفتح في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ هو الحكم والفصل بالحقِّ، وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وهو مأخوذٌ مِن فتح الكوَّة لإظهار ما خلفها[1]، فإنَّ الفتحَ في المادّيّات يكشفُ الحقيقة، ومثله الفتح في المعنويّات، فإنَّه يكشف الحقائقَ، ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيه الحكم بالفتح، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقة لما فيها من تصويرِ المشهد تصويرًا مادّيًّا، فإنَّ المعنى إذا صوِّر،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.

وكُشِف؛ فَهِمَهُ المخاطَب، ورسَخَ في ذهنه، وفيه إشارةٌ إلى إظهارِ ما كان خفيًّا مِنَ الحقائق التي لا تراها الأعْيُن، فيكونُ ذلك جليًّا واضحًا يوم القيامة.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لتصوير المشهدِ المستقبليِّ، ولمزيد التَّهديد بالإيماءِ إلى أنَّ الفتحَ سيقع قريبًا، ففيه دعوةٌ إلى المسارعةِ في التَّوبة.

نكتةُ تكرارِ الظَّرف ﴿بَيْنَنَا﴾:

كُرِّرَ ذِكرُ الظَّرف ﴿بَيْنَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لاختلافِ الموقفين، فالبينيَّة الأولى للجمع بين الخلائق، والبينيَّة الثّانية للفتح والحكم بين المتكلِّمين والمخاطَبين، فالأولى جمعٌ للمفترقين في الموقف لإجراءِ الحسابِ، والثّانية تفريقٌ للخصوم بعد الحكم بالحقِّ، فما أصعبَ الجمعَ مع خصوم الحقِّ! وما أشدَّ المفارقةَ في المآل بعد نزول الحقِّ في الحال!

ما أشدَّ المفارقةَ في المآل بعد نزولِ الحقِّ في الحال!

نوعُ الباء ودلالتُها:

دلَّت الباءُ في قوله تعالى: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ على الإلصاق والالتباس، أي: إنَّ الفتحَ والحكم الذي يحكمُ بهِ اللّهُ؛ يكون ملتبسًا بالحقِّ لا يفارقه أبدًا؛ لأنَّه صدرَ عنه، وانتهى إليه، فالحقُّ محيطٌ بالعبادِ، مؤمنِهم وكافرِهم، وهو ما تطمئنُّ له قلوبُ الأبرارِ، وتفزع منه قلوبُ الفجّار.

حكمُ اللهِ تعالى في العبادِ صادرٌ عن الحقِّ ملتبسٌ به

معنى تعريفِ لفظِ (الحق):

تعريفُ لفظِ (الحقّ) للعهد الذِّهنيِّ، وهو الحكمُ العادلُ بين العبادِ يوم القيامةِ، فالمقصودُ بالحقِّ: ما يصدر في شأنِ العبادِ جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا.

نكتةُ تقييدِ فعل ﴿يَفۡتَحُ﴾ بقيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

بـيـانُ الـحـكـمِ ونـوعُـهُ ترهيبٌ للكفّار وطمأنينةٌ للأبرار

جاء تقييدُ فعلِ الفتحِ بقيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دون فعل الجمعِ في قوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ وذلك لأنَّ الجمع سيكون لأجل الجمع بين المختصمين والمفترقين، وهو جمعٌ مطلقٌ باعتبارِ أنَّ الجمع مقدِّمةٌ من مقدِّمات الحساب، أمّا الفتحُ والحكم؛ فتقييدُهُ بالحقِّ لِما سيصدر عن الحقِّ سبحانه بشأنِ العباد، فالتَّقييدُ لبيانِ أنَّ الحكمَ لن يكون إلّا بالحقِّ المبين في ذلك اليوم المتين.

معنى (الواو) ودلالتها:

عطفُ العلَّةِ على المعلول

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ حرفُ عطفٍ للجمع، والوصل بين الجملتين لفائدة بيانِ أنَّ اللّٰهَ تعالى الذي سيفتحُ بين الخلائق بالحقِّ هو الفتّاح العليمُ الَّذي لا تغيبُ عنه غائبةٌ في الأرض ولا في السَّماء، وفي الجملة المعطوفةِ معنى التَّعليل، فهو من عطفِ العلَّة على المعلول، أي: يحكمُ بيننا بالحقِّ؛ لأنَّه الفتّاح الحاكمُ بالحقِّ، العليمُ بالشؤون.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تعظيمُ الفتّاحِ العليم تهديدٌ للظّالمين

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بـ(أل) لإفادة الكمال، فهو الكاملُ ﷻ بهاتَين الصِّفتَين دون سواه، فأفاد ذلك التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، ودلالة صيغة (فعّال) في: ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾، وصيغة (فعيل) في قوله: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة، وهذا فيه تهديدٌ وتوبيخٌ للمخاطَبين في سياق الآية، ولأولئك الذين لا يؤمنون[1].

نكتةُ تقديمِ صفة ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تقديمُ ذِكرِ صفة ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ مِن باب تقديم النَّتيجة على السَّبب، فاللّٰه ﷻ يفتح بين العباد، ويحكم عليهم؛ لأنَّه العليم بهم، الخبيرُ بشؤونِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 548.

بلاغةُ التَّذييلِ بصفتَي ﴿ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

دلالةُ القوَّةِ والعلم في تحقيق العدل الإلهيّ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ بوصفهِ تعالى بكثرة الحكم وقوَّته وإحاطة العلم، وبذلك كان تذييلًا لجملة ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ المتضمِّنة حكمًا جزئيًّا، فذُيِّل بوصفٍ كُلّيٍّ، وإنَّما أُتبع ﴿ٱلۡفَتَّاحُ﴾ بـ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ حكمَهُ عدلٌ محضٌ؛ لأنَّه عليمٌ لا تحفُّ بحكمه أسبابُ الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجزِ، واتِّباع الضَّعف النَّفسانيِّ النّاشئ عن الجهلِ بالأحوالِ والعواقب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتحُ والفصلُ:

الفتحُ الحكمُ بين المفترقين بعد انغلاقٍ، والفصل جعلهما متباعدين

الفتحُ هو الحكمُ بين الشَّيئين ليظهر ما وراءهما، ومنه فتحُ الباب، ثم اتُّسِعَ فيه، فقيل: فتح إلى المعنى فتحًا؛ إذا كشفه، والفاتح الحاكم، وقد فتح بينهما، أي: حكم، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][2]، أمّا الفَصلُ؛ فبَوْنُ ما بين الشَّيئين، والفَصْلُ: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلكَ القضاءِ فَيصَلٌ، وقضاءٌ فَيْصَليٌّ وفاصِلٌ، وحُكْمٌ فاصِلٌ[3]، فالفصلُ بين العباد الحكمُ بينهم في جعل كلٍّ منهم في فصلٍ غير صاحبهِ، والفتحُ بيانُ ما انغلق في أمورِ الحكم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 195.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.
(3) الخليل، العين: 7/ 126.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»